نخبة الفكر (1)

د. عمر المقبل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على معلم الخير للناس أجمعين، القائل فيما صح عنه: « من يرد الله خيرًا يفقهه في الدين ».

أما بعد، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، أيها الإخوة والأخوات من طلاب العلم، الذين يتابعون هذه البرامج، وهذه الدروس العلمية، التي تندرج ضمن مشروع كبير، وهو مشروع البناء العلمي، ويسرني ويشرفني أن أكون معكم في هذه الدروس العلمية، التي نتناول فيها بإذن الله تعالى بشيء من التفصيل متنًا مباركًا، ومتنًا متميزًا تبوأ مكانة عظيمة في علوم الحديث، ألا وهو: نخبة الفكر، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري -رحمة الله عليه-، المتوفى سنة اثنين وخمسين وثمانمائة.

وقبل أن نبدأ وبعد أن رحبت بكم أيها الإخوات المشاهدين والمشاهدات، أرحب بالإخوة أيضًا الحضور معي هنا في هذا المجلس، وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، فإن هذا هو الهدى الذي بعث الله -تعالى- به نبيه -صلى الله عليه وسلم- ودين الحق، قال الله -عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

وأسأل -سبحانه وتعالى- أن يبارك لنا في هذا المتن، وفي غيره من الدروس العلمية الأخرى، التي يُلقيها أصحاب الفضيلة، المشايخ في هذه المجالس المباركة.

متن النخبة هذا -نخبة الفكر- لم يصل إليها إلا بعد أن تمخض هذا أو سبقته جهود كبيرة جدًّا لأهل العلم في تقريب علوم الشريعة، فجزاه الله -تعالى- عنا خير الجزاء،

وأرى من المهم -ونحن في بداية هذه الدروس- أن أشير إلى ما يُعرف بتأريخ هذا العلم، ولو على وجه الاختصار، فإن معرفة تأريخ العلم تمامًا هو كمعرفة الإنسان بتاريخ أسرته، وتاريخ منطقته وبلده التي يعيش فيها، فإن لذلك أثرًا جيدًا في فهم تسلسل المعلومات الذي سنرى شيئًا من ثماره -إن شاء الله تعالى- في التعليق على هذا المتن المبارك.

لا يخفى على الجميع أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لما كان بين أظهر الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كان يلقي إليهم العلم، وكان العلم لا يخرج عن نوعين: النوع الأول: كلام الله -عز وجل- الذي ينزل عليه من السماء بواسطة جبريل -عليه السلام-، والنوع الثاني: هو الوحي الآخر، وهو وحي السنة، الذي كان يتكلم به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكلا الوحيين شرع، قال الله -عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4]، والله -عز وجل- في آيات كثيرة يجعل طاعته مساوية لطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن الرسول مبلغ عن المرسل وهو الله -تبارك وتعالى- ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يبلغ هذه الشريعة، كان الناس يتلقون هذه الشريعة من فيه -عليه الصلاة والسلام-، ويتلقونها بواسطة أفعاله وأقواله وتقريراته -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا يقودنا إلى نقطة مهمة ونحن ندرس علوم الحديث، أو علوم السنة، ما المقصود بالسنة؟ حينما يتحدث عنها العلماء.

المقصود بالسنة: هي كل ما أُثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير، وبعض أهل العلم يضيف قيدًا أو وصفًا رابعًا وهو: أو ما أُثر عنه من صفة خَلقية أو خُلقية، وإن كان ذكر الخُلقية هنا ينبغي أن يُدرج مع الأوائل؛ لأن الأخلاق

التي تتلقى منه جزء من الشرع، لكن قد يقول قائل: ما علاقة الجانب الخلقي الذي هو شيء قدري بالسنة؟ فنقول: لما أضيف إلى ذاته الشريفة -صلوات الله وسلامه عليه- صار تعلقه من هذه الجهة بالسنة واضحًا، إذ الصحابي مثلاً حينما يصف النبي -عليه الصلاة والسلام- بأنه أبيض مُشرب بحمرة، هو يتحدث عن المشرِّع، أو النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويسأل أحد التابعين يسأل البراء بن عازب ويقول: كيف كان وجه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: هل رأيت القمر؟ لقد كان وجهه كالقمر -صلى الله عليه وسلم-، وكعب بن مالك -رضي الله عنه- يقول: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سُرَّ استنار وجهه، فكل هذه الأشياء قد لا يتعلق بها تشريع، لكن لما أضيفت إلى ذاته الشريفة -صلوات الله وسلامه عليه- صارت من هذه الجهة متصلة بالسنة، وذلك أن الصحب الكرام -رضي الله عنهم- نقلوا كل شيء يتعلق به -صلوات الله وسلامه عليه-، حتى إن أنسًا -رضي الله عنه- قال: مات النبي -صلى الله عليه وسلم- وما في لحيته سوى بضع وعشرين شعرة بيضاء، حتى هذا بلغ بهم الوصف الدقيق لما أُثر عنه -صلى الله عليه وسلم-، أو لما كان عليه -عليه الصلاة والسلام-، وعائشة تصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه كان يصلي صلاة الليل وهو قائم، فلما حطمه الناس كان يصلي جالسًا، أو لما كثر عليه اللحم، وهكذا، فيه أشياء لها أحيانًا جانب تشريعي، وأحيانًا أشياء ليس لها جانب تشريعي، يتعلق به تكليف، حلال، حرام، إباحة، كراهة، وغير ذلك من الأحكام المعروفة، ولكن لصلتها بذاته الشريفة -صلى الله عليه وسلم- نقولها كما هي، وهذا نذكره لنزداد اعتزازًا وفخرًا بهذا الحفظ العظيم، الذي بذله الصحب الكرام ومن بعدهم من التابعين وأتباعهم، حتى

وصلت إلينا الشريعة غضة طرية، لم يتركوا شيئًا يتعلق بالتشريع، بل أقول: لم يتركوا شيئًا يتعلق بالصفة الخلقية -صلى الله عليه وسلم- إلا نقلوها، فكيف بما له صلة بالشريعة؟!

إذن هذه السنة كيف وصلت إلينا؟ هذا الذي نريد أن نصل إليه؛ حتى نعرف كيف وصل إلينا مثل هذا المتن المبارك.

الصحب الكرام -رضي الله عنهم- كانوا يتلقون السنة مباشرة من فِي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن طال السند بحيث غاب إنسان منهم عن مجلس، فإنه يأخذه عن صاحب آخر، فمثلاً في حديث عمر في صحيح مسلم، وفي حديث عقبة بن عامر أيضًا كلاهما، قال: كانت لنا إبل نروحها بعشي، وكان بعضنا يعتقب بعضًا في حضور مجالس النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: فأتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة فسمعته يقول: « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله ... »، فقلت: ما أحسن هذه؟ قال: التي قبلها أحسن، فهذا يشير إلى أنه فاته شيء من المجلس، فكانوا يتناقلون على كل حال هذه الشريعة.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام-، ومجيء جيل التابعين، زادت حلقة الإسناد رجلاً واحدًا، كيف؟ صار التابعون الذين يتلقون هذه السنة والشريعة صاروا لا يأخذونها من صاحب الشريعة المباشر، وهو النبي -عليه الصلاة والسلام-، بل كانوا يأخذونها عن طريق الصحابة، وإلى هذا الحد والأمر أيضًا لم يحصل فيه إشكال، لما وقعت الأحداث والتغيرات في الأمة الإسلامية، خصوصًا بعد سنة ستين، بعد موت معاوية -رضي الله تعالى عنه- وحصول الفتنة، وانقسام المسلمين، بدأ يفشوا الضعف، وبدأ بعض الناس يُركِّب بعض الأحاديث أو ينقلها تبعًا للأهواء، فصار الصحابة -رضي الله عنهم- يؤكدون على أهمية التثبت، والسؤال من هو الذي حدَّثك، كما في صحيح

مسلم في مقدمة الصحيح، يقول في ما رواه مسلم: يقول بُشير بن كعب العدوي: كنت في مجلس ابن عباس، فكنت أقول: قال رسول الله، قال رسول الله، ولا يُلقي ابن عباس لي بالاً، فقلت: ويحك يا ابن عباس، ألا تسمع ما أقول؟! قال: كنا، هذا ابن عباس، الشاهد من هذا، وابن عباس توفي سنة ثماني وستين، قال: كنا إذا سمعنا الرجل يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ابتدرته أبصارنا، يعني تشوفنا لحديثه، قبل أن تقع الفتنة، وقبل أن تقع الإشكالات، فلما ركب الناس الصعب والذلول، يعني كل بدأ يحدِّث، الثقة وغير الثقة، المتقن وغير المتقن، لم نقبل إلا ما ثبت عندنا، أو كلمة نحوها، أو لم نأخذ إلا عمن نرضى، فقال له الناس: إنه ثقة إلى آخره، فالمقصود أراد ابن عباس أن يشير إلى أن هذه التغيرات أوجبت مزيدًا من الاحتياط.

تقدَّم جاء جيل أتباع التابعين، الذي تعاصر مع جيل التابعين، الصحابة تناقصوا، تناقصوا، تناقصوا حتى انقرض جيلهم، وكانت هذه الشريعة تُنقل في الصدور، فكان الصحابة كما تلقوها من النبي -صلى الله عليه وسلم- ينقلونها للتابعين، والتابعون ينقلونها لأتباع التابعين، في هذه الفترة لما بدأت تطول الأسانيد، وصار الوصول إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قد يكون برجل أو رجلين أو ثلاثة أحيانًا؛ لأن طبقة التابعين امتدت قرابة مائة سنة، وهم ثلاث طبقات، كبار التابعين، متوسطي التابعين، صغار التابعين، فكان التابعي الصغير وضابطه الذي لم ير إلا صحابيين أو ثلاثة، عدد قليل جدًّا من الصحابة، كان غالب ما يرويه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يصل إلى بواسطتين، تابعي كبير، ثم صحابي، وقلَّ أن يصل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بواسطة الصحابي الصغير، إذن لاحظ وأنت في عصر التابعين زادت حلقات الإسناد، كم صارت الآن حتى يصل التابعي الصغير إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ صار

يحتاج إلى واسطتين في الغالب، فجاء عصر أتباع التابعين، قبل أن نصل إلى عصر أتباع التابعين، كان الخليفة الصالح الراشد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-، المتوفى سنة تسع وتسعين، كان عالمِا، وأدركه ممن أدركه من التابعين الصغار الزهري، وهذا نموذج لصغار التابعين، فالزهري لم يسمع إلا من قلائل لابن سعد، ومن أنس بن مالك -رضي الله عنهم-، فاقترح على أمير المؤمنين عمر عبد العزيز -رضي الله عنه ورحمه الله- وقال: إني خشيت ضياع السنة، فلو أمرت بكتابتها وتدوينها، فراق هذا الاقتراح لعمر -رضي الله عنه ورحمه الله- وكان هو صاحب القرار، هو ولي أمر المسلمين، فوافق هذا أن يكون ولي الأمر عالمِا أيضًا مدركًا لأهمية تدوين السنة، فأمر بهذا بدأت تدوَّن السنة، وهذا أحد صور الحفظ التي تكفَّل الله -عز وجل- بها، وقد يقول قائل: أليس الحفظ خاصًا بالقرآن؟ فنقول: من حفظ القرآن أن تُحفظ السنة، لماذا؟ لأن حفظ القرآن يشمل أمرين: حفظ ألفاظه، وحفظ معانيه، ولا يمكن أن تُحفظ معانيه إلا بحفظ الشارح لهذه المعاني، والسنة هي الشارحة للقرآن الكريم، فكان من تمام حفظ الله لدينه، أن قيَّض لهذه الشريعة من يحفظ حروفها كالقرآن الكريم، ويحفظ حروفها ومعانيها في السنة النبوية، ولهذا حينما نقرأ قول الله -تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]، فإننا نعتقد أن هذا شامل للقرآن والسنة، لو لم تُحفظ السنة، ما استطعنا أن نعرف كيف نصلي، لأن الله أمرنا في القرآن أن نصلي، لكن كيف نصلي؟ في السنة، أمرنا الله -تعالى- أن نحج، كيف نحج؟ في السنة، أمر الله -تعالى- أن نزكي، كيف نزكي؟ في السنة، فثمة أحكام كثيرة جدًّا لا يمكن أن نطبقها إلا بالسنة.

إذن من لازم حفظ القرآن أن تُحفظ السنة، فقيَّض الله لها أقوامًا وفئامًا من الناس حقهم على الأمة عظيم، فرحلوا آلاف الكيلومترات أنفقوا ملايين، يعني ابن معين ورث

عن والده مليون درهم، أنفقها جميعًا في طلب العلم، أبو حاتم الرازي عدَّ ولده بعض رحلاته وإذا هي تتجاوز أكثر من عشرين ألف كيلو يمشي على قدميه، حفظًا للسنة النبوية.

المهم لما بدأت تُدوِّن السنة، وبدأ العلماء يكتبون ويحفظون، فكتبت المصنفات، وبدأ في كتابة المسانيد، بدأ في كتابة الموطآت، بدأ في كتابة المعاجم، بدأ في كتابة السنن، صارت الآن الأسانيد موجودة أمام الناس، كيف يُحكم عليها بالصحة والضعف والحُسن والقبول والرد؟ هناك قواعد محكمة طبَّقها بداية الصحابة على قدر الحاجة التي عندهم، كالتثبت من السماع، كالتثبت من الاتصال، عدم الوهم، ضمان عدم الوهم ونحو ذلك، بعد ذلك لما طالت السلاسل بدؤوا يتأكدون من السماع، وأن فلانًا لقي فلانًا ورآه وسمع منه، ثم بدؤوا يفحصون الرواة الذين بدؤوا يُكثرون من الرواية، هل أحاديثهم مضبوطة ومُتقنة، يأتون بها على وجهها، أم الخطأ عندهم كثير، فظهرت بعد ذلك مصنفات تتعلق بالجرح والتعديل، ثم في تلك الأثناء ظهرت مصنفات في تواريخ الرجال، ظهرت مصنفات في الثقات، ظهرت مصنفات في الضعفاء، في المجروحين ونحو ذلك، فتكاملت بهذا الصورة.

هذه الكتب التي بُثَّت فيها الأسانيد ما القواعد والضوابط التي تجعل الإنسان يحكم على هذه الأسانيد وعلى هذه الطرق بأن هذا صحيح، وبأن هذا ضعيف، وبأن هذا مقبول، وبأن هذا مردود؟ هل الأئمة حينما يقولون هذا حديث ضعيف، أو هذا حديث صحيح بالتشهي؟ كلا، بل أقول، وبكل اطمئنان، لا يمكن أن يوجد في العالم أدق من عمل الأئمة وتطبيقاتهم في علوم الحديث في الحكم على الرواة، وأقول هذا

على يقين، ومن قرأ في سير الأئمة، وأساليبهم وطرائقهم في التثبت والحفظ، وجد شيئًا عجبًا، وسيمر بنا -بإذن الله تعالى- أثناء الشرح نماذج من ذلك -إن شاء الله تعالى.

أقول: لما صُنِّفت هذه المصنفات بدأ بعض العلماء يتكلم في بعض الضوابط والقواعد، فكيف كُتبت قواعد علوم الحديث؟

طبعًا قواعد علوم الحديث لم تُكتب إلا بعد أن دوِّنت المصنفات؛ لأن التدوين في علم السنة ما بدأ بداية حقيقة إلا في آخر القرن الأول، على عهد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- كما أشرنا قبل قليل.

بعد ذلك في سنة مائة وخمسين تقريبًا منتصف القرن الثاني، بدأ علم الجرح والتعديل ينشط على رأس أئمة كبار كشعبة وسفيان الثوري، تلاهم بقليل جدًّا مالك، طبقة تقريبًا مقاربة، ابن عيينة، الشافعي، وغيرهم من الأئمة.

هنا لما بدأ التصنيف بدأ بعض العلماء يشير إشارات تتعلق بعلم المصطلح، مثاله: الإمام الشافعي مثلاً -رحمه الله- متوفى سنة أربع ومائتين، يعني في أوائل القرن الثالث، صنَّف مصنفه العظيم "الرسالة"، وهي في الجملة تصنَّف ضمن علوم أصول الفقه، لكن من علوم أصول الفقه مباحث السنة، فأشار الشافعي في أثناء الكلام على مباحث السنة إلى جملة من القواعد اليسيرة، الشافعي -رحمه الله- وإن كان مشاركًا في علم الحديث لكنه لم يتفرغ له كتفرغ أحمد وابن معين وابن مدين، لكنه كان مشاركًا، الإمام الدارمي مثلاً توفي سنة مائتين وخمس وخمسين، في مقدمة كتابه "السنن" أشار إلى جملة من الأبواب التي لفت فيها النظر إلى قضية العناية بتمحيص الرواية، والحذر من الرواية عن الضعفاء ونحو ذلك، الإمام مسلم الحجاج -رحمه الله- مثلاً المتوفى سنة مائتين وواحد وستين، في مقدمة صحيحه أشار إلى علوم أكثر من الدارمي؛ لأنه قصد في هذه

المقدمة أن يشير هو إلى جملة من الضوابط والقواعد، فمثلاً تكلم على حكم المرسل عند المحدثين، تكلم على ما هو الضابط الذي يُحكم به على رواية الراوي عن من روى عنه بالاتصال، هل يُشترط السماع؟ أم يُكتفى بالمعاصرة مع إمكان اللقاء في بحث طويل مشهور عند أهل العلم، تكلم في نقولات كثيرة عن حكم الجرح والتعديل، هل هو داخل في الغيبة المحرمة أم لا، وبسط القول في ذلك، وذكر نقولاً كثيرة عن العلماء بأن هذا خارج عن الغيبة المحرمة، رعاية لمصلحة الحفاظ على السنة، وهكذا ذكر جملة.. تكلم على بعض الرواة، جملة من المباحث في هذا الموضوع.

مثلاً نجد البيهقي -رحمه الله- المتوفى سنة أربعمائة وثمانية وخمسين، أشار إلى جملة في مقدمة مثلاً كتاب "دلائل النبوة" الحافظ ابن عبد البر توفي سنة أربعمائة وثلاثة وستين أشار إلى جملة أيضًا طيبة من القواعد في مقدمة كتابه "التمهيد" لكن لم يقصد بذلك التصنيف.

قبل هؤلاء الإمام الترمذي -رحمه الله-، المتوفى سنة مائتين وتسع وسبعين، أيضًا في آخر "الجامع الصغير" صنَّف كتابه "العلل الصغير"، ضمَّنه جملة طيبة ومباركة من القواعد التي شرحها بعد ذلك ابن رجب في كتابه "شرح العلل".

هذه المرحلة الأولى التي نستطيع أن نعنون لها بعنوان، وهو: المرحلة الأولى من التصنيف في علوم الحديث، هي ما أشار إليه جماعة من الأئمة في مقدمات كتبهم، أو خواتيمها، من أنواع متفرقة في علوم الحديث، لم يقصدوا بها الاستيعاب؛ لأنهم أصلاً لم يقصدوا التصنيف في علوم الحديث، وإنما قصدوا الإشارة، هذه المرحلة الأولى.

المرحلة الثانية: هي التصنيف المستقبل في علوم الحديث، وأول من حمل الراية في هذا هو الإمام أبو الحسن الراماهرمزي، المتوفى سنة ستين وثلاثمائة، ولاحظوا أنه يكون في

النصف الثاني من القرن الرابع، وهذا العالم الفاضل ألف كتابه "المحدث الفاصل بين الراوي ..." هذا العالم لغوي أكثر من كونه عالمًا بالحديث، لكن الله -تعالى- كتب على يديه مبادرة للتصنيف في علوم الحديث، ولهذا لما لم يكن متخصصًا في هذا، ولكنه كان مشاركًا لم يستوعب وأُخذ عليه بعض الملاحظات، وهذا شيء طبعي أيها الإخوة، كل من يبتدئ بمشروع، لابد أن يكون عليه ملاحظات، لكن له فضل السبق.

جاء بعده الحاكم، صاحب المستدرك، أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الضبي، ابن البياع، صاحب المستدرك المتوفى سنة أربعمائة وخمسة، فصنف كتابه "معرفة علوم الحديث"، وكان أكثر قوة وعمقًا من كتاب الرامهرمزي.

ثم جاء بعده الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، المتوفى سنة ثلاثين وأربعمائة، وعمل مستخرجًا على كتاب الحاكم هذا وأيضًا أضاف إليه جملة من أنواع علوم الحديث، لاحظوا أبو نعيم توفي سنة أربعمائة وثلاثين، جاء بعدهم الإمام الجليل والذي له السوق الرائجة في كتب التصنيف في هذا الفن الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي المشهور بالخطيب البغدادي، صاحب تاريخ مدينة السلام، وغيرها من مصنفات.

هذا الإمام الجليل جاء وصنف كتابه الشهير "الكفاية في علم الرواية" ماذا قصد بهذا الكتاب؟ قصد به أن يجمع ويحاول أن يستوعب ما يتعلق بقوانين الرواية، أو قواعد علوم الحديث، والكتاب نفيس جدًّا، ولكن الذي جعل الكتاب يطول قليلاً أنه لا يروي نقطة لا يروي مسألة لا عن إمام متأخر، ولا عن إمام متقدم، ولا عن صاحب فضلاً عن الأحاديث إلا بالإسناد، فلو أراد أن يروي كلمة من سطر واحد أو نصف سطر عن الإمام أحمد مثلاً، فإنه يرويها بالإسناد، يروي عن ابن أبي حاتم بالإسناد، يروي عن

ابن معين، عن ابن أبي زرعة، عن البخاري، كلها بالإسناد؛ لأنه قصد بهذا أن يُقعِّد لهذه القواعد، وأن يُسندها لأهلها.

هذه المرحلة الثالثة تكاد تكون انتهت عند الخطيب البغدادي، والخطيب كما قال الحافظ أبو بكر بن نقطة -رحمه الله: كل من أنصف عرف أن المحدثين عيال على كتب الخطيب، لماذا قال هذا الكلام؟ لأن الخطيب كتب كتابة مفصلة في غالب أنواع علوم الحديث، فهو لما جاء إلى ... المتصلة الأسانيد كتب فيه، لما جاء إلى المرسل الخفي كتب فيه، لما جاء إلى فقه الحديث كتب فيه، ولما جاء إلى قوانين الرواية كتب فيها، فغالب الأنواع التي كانت محل بحث وأخذ ورد كتب فيها، وصنَّف فيها مصنفات كثيرة جدًّا -رحمة الله تعالى عليه.

نستطيع أن نقول أن المرحلة الثانية انتهت عند هذا الحد.

جاءت المرحلة الثالثة، والتي حمل رايتها ولواءها الحافظ أبو عمرو بن الصلاح -رحمه الله تعالى-، وهو من علماء الشام.

أبو عمرو بن الصلاح توفي سنة ستمائة وثلاثة وأربعين، لما أنشئت المدرسة الأشرفية، وهي أحد المداس العامرة في ذلك الوقت، التي بُنيت سنة ستمائة وثماني وعشرين، لما أنشئت هذه المدرسة، كان من ضمن الدروس التي تُلقى فيها دروس علم الحديث، فكان الحافظ ابن الصلاح -رحمه الله- أشبه ما يكون مع جلالته وإمامته مثل ما تستطيع أن تقول البروفيسور أو العالم الكبير الذي يأتي إلى الجامعة، ويلقي محاضرات على الطلاب، وتكون الأوراق هذه منتشرة بينهم.

لماذا الحافظ ابن الصلاح عمد إلى هذا؟ لأنه وجد في كتب المتقدمين في المرحلة الأولى والثانية التي أشرنا إليها، أن علوم الحديث الكلام فيها صار متفرق، فاحتاجت

إلى تهذيب واختصار، ومن جملة الاختصارات التي وقعت حذف الأسانيد، لماذا؟ لأن الأصول موجودة، يعني كتب الخطيب، وكتب ابن عبد البر، البيهقي، الترمذي، هذه موجودة، فمن أراد أن يتأكد من الأسانيد فليرجع إلى أصولها، فأراد أن يقرِّب علوم الحديث بعبارة مختصرة، تناسب العصر، وبنفس الوقت يعمد إلى ترتيب هذه العلوم، على حسب استطاعته، فكتب كتابه المشهور "معرفة أنواع علوم الحديث" هذا هو عنوانه، واشتهر فيما بعد بـ"مقدمة ابن الصلاح"، ويُطبع أحيانًا بعلوم الحديث، لكن الذي أثبته في مقدمة كتابه هو هذا "معرفة أنواع علوم الحديث".

ضمَّن كتابه خمسة وستين نوعًا من أنواع علوم الحديث في هذا الكتاب، كما قلنا أراد أن يدرِّس هذا الكتاب كان يُلقيه على شكل محاضرات، فتخرج أشبه ما تكون بالمذكرات، فيتداولها الطلاب، فإذا أشكل عليهم شيء نقحه وهكذا، حتى خرج هذا الكتاب بهذا الحجم، ثم صار هذا الكتاب أشبه ما يكون بالمدار الذي تدور عليه كتب الفن، كيف؟ لما ألف كتابه وانتشر، تلقاه العلماء بالقبول، وحينما أقول بالقبول لا يعني التسليم لكل قضية، لا، وإنما احتفوا به؛ لأنه صار فيه إبداع، وهذه مزية المبادرة بالتصنيف للعالم إذا تأهل، فتلقى العلماء هذا الكتاب؛ لأنه كما يقولون: أصبح فتحًا جديدًا، وهذا يؤكد لنا -أيها الأفاضل- أن العالم إذا فتح الله عليه، وأتقن علمًا فإنه لا يقول إن الناس استغنوا وتكفيهم كتب الأولين، لكل عصر لغته، ولكل عصر أسلوبه، تتغير أساليب التعليم، تتغير أساليب التصنيف، نعم المحتوى واحد، لكن يبقى الإبداع في تقريب المعلومة، فمثلاً حينما يأتي أصولي ويشرح متن للورقات، أو فقيه يشرح في متن من متون الفقهاء، لو أراد أن يقول: ما ترك الأول للآخر؟ ما صنف ولا فعل شيئًا، لكن لو قال: كم ترك الأول للآخر؟ يعني هناك مجالات للإبداع، فهذا يجعله ينطلق،

وهذه ليست دعوة لمجرد تسويد الأوراق، لا، إنما هي دعوة للإبداع فقط، فلما يكون عندك إبداع أو تجديد في تقريب العلوم، فلا تتعنى، فابن الصلاح -رحمه الله- ما قال: والله ما قصَّر الخطيب، ولا قصَّر ابن عبد البر، وبيَّض الله وجوههم، وكتبوا وخلاص ما فيه حاجة، لا، جاء ووجد أن هناك حاجة، وجد أن الطلاب صاروا يستصعبون فهم علوم الحديث بسبب ما فيه علم من العلوم إلا وله عُقد وأصول، وله مُلح ومكملات، فربما طالت بعض المصنفات بسبب هذه الاستطرادات مثلاً أو الملح، وربما أيضًا طغى اهتمام بعض الطلاب بالملح والمكملات على حساب الأصول والعُقد، فجاء -رحمة الله عليه- وهذَّب ورتَّب وأبدى ما عنده.

فنقول: حينما تلقاه الناس بالقبول -نعود إلى كتاب ابن الصلاح- أقصد بذلك احتفوا به، ومن مظاهر هذا الاحتفاء كثرت مختصراته، وكثرت شروحه، وكثرت نظمه، وكثرت شرح المختصرات إلى آخره، وسأذكر نماذج من ذلك.

من أوائل من اختصر كتاب ابن الصلاح: النووي -رحمة الله عليه-، فإنه ألف كتابه "إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق"، والنووي توفي بعد ابن الصلاح بنحو من ثلاث وثلاثين سنة، سنة ستمائة وست وسبعين، النووي اختصر كتابه "الإرشاد" هذا في كتاب آخر، وهو "التقرير والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير" التقريب هذا هو الذي شرحه السيوطي في كتابه الشهير "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي" يقصد به النووي، لكن تعرفون لابد من انضباط السجع.

أيضًا ممن اختصر الكتاب، وإن كان حصل فيه تغيير في ترتيبه، الإمام ابن دقيق العيد -رحمه الله-، المتوفى سنة اثنتين وسبعمائة، فإنه ألف كتابه "الاقتراح في بيان الاصطلاح"، فإنه ألف كتابه هذا، وإن كان كما يقولون تصرف في ترتيب الكتاب،

لكنه اعتمد كتاب ابن الصلاح، بدليل أنه ينقل كلامه، ويعقِّب عليه، ويضيف آراؤه؛ لأنه كتاب مليء بالتحقيقات، وإن كانت غلبت عليه النزعة الأصولية، لكن فيه تجديد وإبداع.

أيضًا ممن اختصر الكتاب الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-، في كتابه "اختصار علوم الحديث" علق عليه أحد العلماء وهو الشيخ أحمد شاكر، وطُبع الكتاب باسمه "الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث" وهذا الكتاب مطبوع ومتداول.

أيضًا ممن اختصر هذا الكتاب الحافظ الذهبي في رسالته المختصرة "الموقظة في علم الحديث"، وبعض أهل العلم يرى أنها مختصرة من "الاقتراح" وعلى كل حال هذا بحث ليس هذا مقامه.

فلاحظ هذه الجهود التي تتعلق بالاختصار وشرح الاختصار.

ممن اختصره الإمام الحافظ ابن الملقن، أحد شيوخ الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، وابن الملقن توفي سنة ثمانمائة وأربعة تقريبًا، واختصر كتابه "المقنع" برسالة صغيرة اسمها "التذكرة في علم المصطلح الحديثي".

هذا الكتاب أيضًا لقي عناية أخرى من جهة العلماء بنظمه، لقي علامة أخرى من جهة نظمه، فنظمه الحافظ العراقي، أحد شيوخ الحافظ ابن حجر الكبار، المتوفى سنة ست وثمانمائة، في ألفيته الشهيرة جدًّا، ألفية الحديث.

جاء الحافظ السخاوي المتوفى سنة تسعمائة واثنين من تلاميذ الحافظ ابن حجر، فشرح نظم العراقي، وهذه من أحسن وأقوى المنظومات التي نظمت كتاب الحافظ ابن الصلاح. ممن نظم أيضًا ابن الصلاح السيوطي الذي له الشرح السابق "تدريب

الراوي"، نظم كتاب ابن الصلاح في ألفية مشهورة، ألفية السيوطي، علّق عليها الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله– ببعض التعليقات.

ألفة السيوطي تمتاز بسهولة الأسلوب، وألفية العراقي تتميز بعمق وجزالة اللفظ، فهي أعمق وأقوى، وفي كلٍ خير.

هذا الاهتمام كله تلاحظون صار المدار كله أو قطب الرحى ما هو؟ كتاب ابن الصلاح –رحمه الله تعالى–، ولهذا الإنسان لا يدري كيف يطرح الله –سبحانه وتعالى– البركة في كتابه، فإذا صدق الله –سبحانه وتعالى– وقصد نفع الناس، فإن الله –عز وجل– ينفع ويبارك، ولهذا أنا أجدها فرصة لأذكر نفسي وأذكر إخواني وأخواتي، لا يحقر أحد منكم نفسه، نحن الآن كلنا على كراسي الطلب، وكراسي التحصيل، اجعل في ذهنك غاية بعيدة جدًّا تريد أن تصل إليها، وهي طلب العلم لترفع الجهل عن نفسك، وترفع الجهل عن غيرك، وتسأل الله –عز وجل– أن يجعلك مباركًا أينما كنت، فقد قيل في تفسيرها، أي معلمًا للناس الخير في أي مكان، ولا تحقر نفسك، فهؤلاء العلماء الذين سمعت بعض أسمائهم، كانوا يومًا من الدهر صغارًا، بل كانوا يومًا من الدهر كلهم ينطبق عليهم قول الله –عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78] فصاروا أئمة وعلماء نفع الله بعلمهم، فأنت وأنتِ أيتها الأخت الكريمة كلنا حينما نطلب العلم لنضع في أذهاننا هذه النية الطيبة، وأن نسأل الله –عز وجل– أن يبارك في علومنا، وأن يرزقنا حسن القصد، وليس المقصود ترى هنا أن العلم لا ينتفع به إلا بالتصنيف، لكنن أردت أن أشير إلى بركة التصنيف، ونفعه، وأثره في الإنسان، والإنسان قد لا يباشر التصنيف، قد يباشر التلخيص، قد يباشر

النظم، قد يباشر نشر العلم، المهم ضع لك قدمًا في نفع الناس، ودع هذه النية تتجدد معك، وجاهد نفسك عليها، وسترى بركة وخيرًا كثيرًا في هذا العلم.

بعد هذا العرض المختصر، جاء الحافظ الباقعة الجهبذ الكبير الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، الذي نريد نحن أن ندرس متنه، رأى أن كتاب ابن الصلاح هذا فيه إعواز أو نوع من الملاحظات تتعلق بترتيب الكتاب، وهذا صحيح، يعني هناك يعني الإنسان لو تأمل وقرأ الكتاب، أو قرأ أحد مختصراته، لوجد أن حق بعض الأنواع أن تتقدم، وبعضها أن يتأخر، لكن نحن نقول: بيَّض الله وجه ابن الصلاح، ما قصَّر، يعني كتب الكتاب، ونحن نقول: ربما لو فسح في أجله لأعاد النظر فيه وقدَّم وأخر، لكن رضي الله عنه ورحمه وبارك فيه على هذه المبادرة.

جاء الحافظ ابن حجر، فشعر أن هناك يعني بعد هذه الشروحات والمختصرات والملاحظات، شعر أن هناك حاجة ماسة لتقديم أو لبناء متن جديد آخر، فجاءت الفكرة بأن يكتب متنًا مختصرًا في علوم الحديث، وهو نخبة الفكر، وقبل أن ننطلق إليه، أود أن أفتح المجال للإخوة، هل هناك سؤال على ما مضى أم لا؟ قبل أن ندخل إلى النخبة وما يتعلق بها؟

{أولاً، جزاك الله عنا خير الجزاء، بالنسبة لتقريب النووي، هل هو اختصار لاختصاره الأول؟ أو اختصار لابن الصلاح؟}.

لا، هو اختصار للإرشاد؛ لأنه ألف كتابه الأول، "إرشاد طلاب الحقائق في معرفة سنن خير الخلائق"، ثم اختصر هو بعد ذلك في التقريب، وهذا التقريب شرحه أكثر من عالم لكن من أشهر الشروح السخاوي.

{بالنسبة لألفية الحافظ العراقي، أجمل الشروح فيها}.

هو شرح السخاوي وقد قيل كل الصيف جوف الفراغ، من أراد أن يفهم ويعرف مقاصد العراقي في ألفيته فلا يتجاوز شرح السخاوي، وشرحه متين ولكن لولا يعني تمنيت أنا شخصيا أنه انعسق من عملية فتح الأقواس وإغلاق الأقواس، قصدي التزم هو بما يعرف بالشرح المزجي، الشرح عامة على سبيل المثال، يقرأ قول الناظم مثلاً، قول الصحابي من السنة أو نحوه ..مرفوعا ولو بعد النبي قاله بأعصري على الصحيح وهو قول الأكثري، يلتزم يقول قوله ويكتب كلمتين ثم يقول الصحابي يضعها بين قوسين، وكان يشرح مسألة فقهية، وهذه قيدت إبداعات السخاوي، السخاوي عباراته عالية وتحقيقه بديع وكتابه نفيس، فلو أنه مثلاً لما أتى إلى .. مرسل الصحابي ما التزم بتفكيك ألفاظ الألفية نفسها لانطلق أكثر وأكثر لكنه ألتزم، ومع ذلك نقول شرح لا يعلى عليه، لكن بعض الإخوة أحيانًا يقول: أنا استشكل علي هذا الإشكال في قضية المتون، نقول: يمكنك أن تبتدئ بتدريب الراوي لأنه ميزته يشرح متن منظور، فعبارته أسهل وعموم السيوطي من العلماء الذين وفقوا لسهولة العبارة.

{نستطيع أن نقول ألفية السيوطي هي أقرب لطالب العلم الحال من العراقي}.

هي أقرب من جهة سهولة اللفظ لكن إذا أردت الجزالة والغزارة عليك بألفية العراقي.

{جزاكم الله خيرًا، علماء الحديث وإن صح التعبير .. الحديث أو يذوق قواعد وضوابط استطاعوا أن يميزوا الصحيح من السقيم، والصحيح أيضًا من الضعيف في أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هل نستطيع أن نقول أن هؤلاء العلماء إذا فعلوه استطاعوا أو نستطيع أن نقول أن علم الحديث -فيما يخص أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم- وتميز الصحيح من السقيم، قد انتهى أنه ضعف من قواعد وضوابط، هل أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- ..كلها حكموا عليها، ميزت

بهذه القواعد .. أو تم الحكم عليها من قبل هؤلاء العلماء أم مازالت هناك أحاديث مروية ولم يزل هناك مجال للبحث فيها}.

هذا السؤال جيد وأشكرك عليه، العلماء في الأحاديث التي بلغتهم في أعصارهم وسألوا عنها، أجابوا عنها ولكن لعلمهم بأن الإحاطة بالسنة غير ممكن لشخص واحد، فإنهم وضعوا هذه القواعد ليستأنس بها من يأتي بعدهم بل يعتمد عليها من يأتي بعدهم في معرفة الحكم على هذه الأحاديث، لأن الأحاديث بعد أئمة النقد الذين غالبهم مات في القرن الثالث، جاءت بعد القرن الثالث رواة ووضعوا أحاديث وسرقوا أحاديث، وبعضهم روا أحاديث من طرق غير مشهورة، وهناك عندنا قواعد نطبق عليها الحكم تمامًا.

هذا الذي يجعلنا نطمئن إلى أنه لا يمكن أن يأتي أحد بحديث منذ عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى يوم القيامة إلا ويمكن لأهل العلم بالسنة الحديث أن يميزوه، نعم قد تقول إذا لماذا تختلف أحكامه، بعضهم يصحح وبعضهم يضعف، فنقول هذا تمامًا كما يخلف الفقهاء والأصوليون في النظر إلى نص من النصوص، فهذا يجتهد بأن دلالته تدل على أمر مثلاً، يقول والله هذا يدل على الوجوب، وآخر يقول لا، يدل على الاستحباب والصارف للوجوب عندي كذا، وآخر يرى نصًا يقول يدل على التحريم، وآخر يقول لا، أنا عندي صارف له عن التحريم، القواعد واحدة لكن الاجتهاد في تنزيل القاعدة على النص قد يختلف، مثله تمامًا كحكم المحدثين على راو هل هو ضعيف أو ثقة، هم عندهم قواعد لكن قد يرى أن هذا الجرح الذي ذكر يقدح، والآخر يقول لا أنا أرى أنه لا يقدح، فمن اعتمد القدح أنزل درجة هذا الراوي، ومن لم يعتمد القدح وثقه، ستكون النتيجة بالطبع هي تصحيح وتضعيف.

مثاله: الحكم على الحديث بالاتصال، هل يثبت بالمعاصرة وإن كان اللقاء كما هو مذهب مسلم، أو لابد من التصريح بالسماع كما هو مذهب أكثر المحدثين قبله، فمن اعتمد مذهب مسلم صحح على شرط مسلم، ومن قال لا أنا لابد يثبت عندي ولا ذرة واحدة أن هذا الراوي سمع من شيخه، قال أنا لا أصحح إلا على مذهب البخاري فلو وجد عندي إسناد ما فيه تصريح بالسماع حكمت عليه بالانقطاع.

إذا القاعدة أصلاً في الأصل يتفقون عليها -أوضح هذا أكثر- سيأتينا -إن شاء الله- في المجلس القادم في الدرس القادم شروط الحديث الصحيح، هي متفق عليها بين العلماء ولكن يختلفون في تطبيقها كما أشرت في هذا الكلام الذي شرحته.

نعود إلى متن النخبة والوقت قد أزف، وأريد أن ننتهي من هذه التقدمة المتعلقة بتأريخ هذا العلم، فيما يتعلق بمتن النخبة الحافظ بن حجر -رحمه الله- توفي في منتصف القرن التاسع سنة ثمانمائة واثنين وخمسين، أنه أتى بعد بن الصلاح وبعد النووي وبعد بن دقيق، وبعد الذهبي، وبعد العراقي، وبعد بن الملقن وبعد هذه الكوكبة الكبيرة من أكابر علماء الحديث، كما قلت لكم هو لحق أن بعض في مصر بن الصلاح وما دار في فلكه من المختصرات والشروح، وجد أنها تحتاج إلى نوع من الترتيب والإضافة التي فاتت ابن الصلاح -رحمه الله- في هذا المتن، فألف هذا الكتاب.

الشيخ الحافظ بن حجر ألف هذا الكتاب قبل وفاته بأربعين سنة، ألفه سنة ثمانمائة واثني عشر ثم انتشر، الحافظ كان عالمًا جليلا كبيرًا، فشرحه بعض علماء عصره وهو العلامة الشمن وشرحه مطبوعا -طبع أخيرًا- فوجد الحافظ أن الشمني -رحمه الله- وهذا نموذج، قد بدأ يفسر أو يشرح بعض العبارات على خلاف ما قصده الحافظ بن حجر نفسه، فوجد أنه هو أولى بشرح المتن، فشرح النخبة في كتابه نزهة الناظم، وقال

في أثناء الشرح: وقصدت شرحه كذا إذ صاحب الدار أدرى بما فيه، كان يشير إلى أن بعض العلم اجتهد في تفسير بعض العبارات على خلاف ما قصده هو، وهذا طبيعي لأن بعض المسائل تحتمل، فعمد إلى شرح متنه بكتابه الشهير نزهة النظم، فكان شرحه من أقوى الشروح لكن عبارته قد تكون صعبة على المبتدئ.

فلما ألف الحافظ بن حجر وانتشر أو دعني أقول ألف انتشر الكتاب، ما سبب انتشاره؟ ما سبب حفاوة العلماء به؟

يمكن أن نلخص حفاوة العلماء به لأربعة أسباب:

أولاً: جلالة هذا المؤلف، فهو حافظ من أكابر الحفاظ، يعني لو قائل إنه لم يأتي بعده مثله حتى الآن منذ منتصف القرن التاسع لم يكن مبالغًا.

الأمر الثاني: أنه من المصنفات التي رضي عنها الحافظ ابن حجر وصرح أنه راضي عن هذا المتن.

الميزة الثالثة التي جعلت هذا المتن ينتشر: هي حسن الترتيب للمتن، وستلاحظون هذا بشكل جلي جدًّا بخلاف ما لو قرأت في أحد مختصرات كتاب ابن الصلاح.

الميزة الرابعة: أن النخبة قرئت على الحافظ بن حجر في حياته قراءة بحث ومدارسة.

لأجل هذه الأسباب حظي النخبة بهذه الحفاوة الكبيرة من أهل العلم، وأضيف وأوضح مسألة حسن الترتيب، حينما أقول حسن الترتيب رتبها الشيخ ترتيبا منطقيا متسلسلة، يبدأ الإنسان مثلاً بالخبر باعتبار وصوله إلينا، فيقول: إما أن يكون آحاد وإما أن يكون متواترا، ثم يتكلم عن المتواتر بسطرين ويغلق ملفه، ثم يبدأ بالآحاد ويقسمه إلى ثلاث أقسام: مشهور، وعزيز، وغريب، ينتهي من المشهور والعزيز لأن

شرحهم أيضًا مختصر، ثم ينطلق أيضًا إلى الغريب ويفصل فيه ثم إذا خلص من هذه المقدمة التي لها صلة بعلم أصول الفقه، وسيتبين -إن شاء الله تعالى- في الدرس القادم- بدأ بتعريف الحديث الصحيح ثم انتقل إلى الحسن لأنه فقد أحد الشروط، ثم انتقل بعد ذلك إلى العلامات أو هل يفيد الصحيح والضعيف العلم أو الظن ثم ما الحكم في زيادة راويهما؟ ما مظان هذا الحديث الصحيح؟ أين توجد.. الخ.

ثم بعد ذلك انتقل إلى مسألة مهمة جدًّا -بعد أن أنهى الكلام عن البنية الأساسية للحديث الصحيح والحسن انتقل إلى ما هي العلوم التي تنتج عن فوات شرطًا أو أكثر من شروط الحديث الصحيح، فتكلم عن الحديث الضعيف وذكر أقسام .. وستأتي معنا عشرة، منها ما يعود إلى عدالة الراوي ومنها ما يعود إلى الاتصال والانقطاع، آثار الترتيب سهل جدًّا بحيث لو أردت أن تشجر النخبة .. من التشجيرات المختصرة التي تبين سهولة استيعاب هذه العلوم،

فهذه أقول الحقيقة ميزة وأنا درست -بحمد الله تعالى- عدد من المتون فما وجدت متنا أكثر سهولة من جهة الترتيب من متن النخبة، نعم هو مليء هو أشبه ما يكون بالرمانة المكتنزة التي ملئت حبة، ولذلك قد يقول قائل أو قد يستغرب لو قلت له أن هذا المتن المختصر الذي يطبع أحيانًا في كتاب ابن حزم الكتب المعتادة بالقطع العادي لا يتجاوز ست صفحات، لكن زاد فيه من أنواع علوم الحديث على ابن الصلاح، ابن الصلاح ذكرنا أنه خمسة وستين نوع، زاد عليها قرابة الثلث، يعني أكثر من عشرين نوع، أكثر من عشرين نوع بلغت أنواع العلوم التي ذكرها الحافظ -رحمه الله- في حدود التسعين أو قريبة من ذلك..

ومع ذلك أتى بهذا الاختصار والتسلسل والعبارة الواضحة البينة -وإن شاء الله تعالى- كما يقولون ليس الخبر كالعيان، سيتبين لنا هذا في الدرس القادم، هذا فيما يتعلق بتاريخ هذا العلم كيف دون وكيف وصل إلينا، وبما أن الوقت قارب فإنني ألخص ما سبق باختصار شديد على شكل خطوط عريضة.

قلنا في البداية أن علم السنة لم يكن بهذه التفاصيل في العهد النبوي ولا في أول عهد التابعين، لأن الحاجة لم تكن داعية له، مثل علم النحو وغيرها من العلم من أصول الفقه، لأنه كان .. أولاً إن لم تقم حاجة به أو أنه أهله كانوا متشبعين به، هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية: لما دونت الكتب مصنفات أشار بعض العلماء أو أول مرحلة من مراحل تدوين علوم الحديث هي التي ذكرها بعض الأئمة في مقدمات كتبهم أو خواتيمها ومثلنا لذلك بكتاب الشافعي والدارمي ومسلم والترمذي ومقدمات البيهقي وبن حبان وبن علي بالمجروحين أشار إلى شيء من ذلك، مقدمة بن عبد البر وغيرهم.

المرحلة الثانية قلنا حمل رايتها أو أول من بدأ بالتصنيف المستقل هو الرمهورزي تلاه الحاكم ثم تلاه أبو نعيم ثم جاء بعد ذلك الإمام الذي تفنن في التصنيف وهو الخطيب البغدادي صاحب الكتب المشهورة ومن أشهرها في هذا الفن الكفاية في علم الرواية، بعدها جاءت مرحلة الترتيب والتعذيب والتشديد والاختصار التي تلت عصر الرواية بالأسانيد، في هذه المرحلة لا رواية بالأسانيد فيما يتعلق بعلوم الحديث، لكن جاءت مرحلة التصريف والترتيب والتي حمل رايتها الحافظ أبو عمرو بن الصلاح المتوفى سنة واحد وأربعين وستة مائة، وبعد ذلك دارت الكتب ما بين مختصرا وما بين شارحا للمختصرات وما بين ناظم وما بين شارح لهذه المنظومات.

ثم اختط بن حجر -رحمه الله- بعد هذه الأداة وهو داخل في المرحلة التالية بن حجر، لاحظ من عهد ابن الصلاح إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيامة المرحلة التالية غير مستمرة، نعم تبقى جهود أهل العلم في تقريب هذا الفن، فالحاصل أن ابن حجر اختط طريقة أخرى كما قلنا لأنه لاحظ أن هناك بعض الملاحظات العلمية أو في صياغة المصنفات في ترتيبها، فاختط بنفسه طريقًا ثم أصبح هذا الكتاب حتى أني أزعم أنه منذ ألفه المؤلف -رحمه الله- أنه من أكثر كتب الحديث على الإطلاق شرحا، وقد أطلعت مرة على ثبت في مخطوطات أهل مكتبة عارف حكمت المشهورة بالمدينة هذه، ووجدت ما لا يحصى من المخطوطات التي شرحت هذا المتن المبارك، ولو دخلت إلى السوق أو المكتبة وقلت أريد شرح لنقطة الفكر ستجد العشرات أمامك من الشروح، هذا فضلاً عن الشروح المسجلة، فضلاً عن الشروح التي لم تنشر، فضلاً عن الشروح التي لم نراها ولم نطلع عليها، فضلاً عن الشروح التي شرحها أهل العلم ممن لا يتكلمون بالعربية أو ممن يشرحوه بغير العربية، وهكذا ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد: 21].

هذا ما أصدقه في هذه المقدمة، وبإذن الله تعالى- في الدرس القادم نبدأ بهذا المتن المبارك والزبدة المختصرة في علوم الحديث.

إن كان من شيئًا أقوله في هذه الدقيقة الأخيرة هي مسألة أن أكثر الكتب التي نستطيع أن نقول الخطيب البغدادي، كتاب ابن الصلاح، نخبة الفكر، هذه من أشهر كتب علوم الحديث، والله -تعالى- اسأل أن ينفعني وإياكم بما سمعنا وأن يعلمنا وإياكم ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا.

والآن نلتقي -بإذن الله تعالى- في الأسبوع القادم، استودعكم الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.